نصبٌ وشواهد على عصر الدم

رولا عبدالله

الأنصاب قوت الذاكرة اللبنانية في المسيرة الحبلى بالحروب. تولد معركة، يسقط العشرات، ينبتون في الأرض أشكالاً تشهد على رجال ومواقف ومقاومة وأحداث. يتوزعون على امتداد الجهات الأربع نتفا من التاريخ اللبناني الذي ان حكى نطق الصخر والفولاذ: هنا مات الزعيم، هنا نشبت معركة، هنا سقطت دماء زكية، هنا يمكن للصورة أن تؤسس لأرضية مشتركة قيد الانشاء. تشهد الصورة على استحالة احتكار أي طرف لوجه لبنان المقاوم. فالدولة والجيش والأحزاب والأهالي والتيارات جميعهم سددوا فاتورة امتلاك الأرض. وان تخاصم طرفان أو أكثر، يجمع بينهما ارث النضال في أكثر الأزمات احتداماً. وفي ذلك حصانة للوطن المشرّع على كل الجبهات والمخططات والخرائط التقسيمية، و سببا لبقاء لبنان المرفوع على أكتف الشواهد والأنصاب، تلك التي يجمع المصور الصحافي وائل حمزة نحو ٦٠ منها في معرض تقيمه «أمم للتوثيق والأبحاث» بمثابة دعوة مجددة الى المشاركة في ورشة الذاكرة اللبنانية.

ينطلق وائل من «شاهد» متواضع مغروس في حقول بلدة «ديردوريت»الشوفية، المكان الذي شهد اغتيال كمال جنبلاط ورفيقيه. يرجع الشاهد الذي دشّن في العام ١٩٩٣ ذكرى أليمة حدثت قبل ٣٢ عاما، مرفقة بخبر منشور في صحيفة النهار بتاريخ ١٣ آذار ١٩٧٧، وفيه: «قرابة الثانية بعد ظهر أمس، كان رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي متوجهاً في سيارته المرسيدس الزيتية ذات الرقم ٥٨٨٨ من المختارة الى عاليه، ولدى وصوله انهمر عليه الرصاص من مكمن نصبه مجهولون كانوا يستقلون سيارة بونتياك بنية فروا بها ثم تركوها وفي داخلها بقع دم». وليس بعيداً عن البلدة الشوفية، يرتفع في السنة نفسها نصب تذكاري في بعقلين يمجّد جيلين من المقاتلين: «١٩٥٨ والحرب»، بالاضافة الى لوحتين تخلدان ذكرى ضحايا مجزرتي معاصر الشوف (١٩٧٧ و١٩٨٣)، دشنتا في ساحة كنيسة البلدة في العام ١٩٩٥. ونصب يخلّد ذكرى شهداء بتلون، دشّن في العام ٢٠٠٠. وفي كفرنبرخ نصب لشهداء البلدة يعود الى العام ١٩٨٦، ومن خلاله يحث الحزب التقدمي الاشتراكي أبناء البلدة على عدم الاستسلام مدونا بيتاً من الشعر: «تقضي الرجولة أن نمد جسومنا / جسراً فقل لرفاقنا أن يعبروا». في كفرمتى شهداء سقطوا في الشارع الذي بات يحمل اسمهم، ولوحة تستحضرمن سقط في ١٤ شباط من العام ١٩٨٤، دشنت في ساحة العين في العام ١٩٩٩. وفي قبيع شعلة للثورة تعود الى العام ١٩٨٥، ونصب ما زال قيد الانشاء في عبيه.

بعض الأنصاب تستعيد وجوهاً وشخصيات دمغت الحياة اللبنانية بحراكها ونبضها. فاذا بالرئيس الياس سركيس يعود الى الشبانية متوسطاً ساحتها. ويحضر مؤسس حزب الكتائب الشيخ بيار الجميل في بكفيا بعدما دشّن نصبا له في العام ٢٠٠٥. وبمبادرة من الجالية اللبنانية في البرازيل دشّن نصب للأمير فخر الدين في البرزة في العام ١٩٧٩

في السان جورج نصب وتمثال وشعلة للرئيس الشهيد رفيق الحريري جرى تدشينهم العام الفائت في الذكرى الثالثة لغيابه. ونصب تذكاري آخر عن روحه دشّن في برجا في العام ٢٠٠٨، وثالث في صيدا دشن في العام ٢٠٠٦، يحمل الوعد: «ستبقى حياً فينا شاهداً شهيداً». وفي الفرزل والجديدة نصبان دشنا قبل عامين للنائب الشهيد بيار الجميل. وفي الأشرفية نصب تذكاري للرئيس بشير الجميل في موقع الانفجار الذي أودى بحياته في العام ١٩٨٢. وفي سن الفيل نصب للنائب الشهيد أنطوان غانم ورفاقه دشّن في العام ٢٠٠٧.

في بعلبك مجسم ضخم لعماد مغنية فوق دبابة غنمتها المقاومة من الجيش الاسرائيلي. وتحفظ بلدة «عين وزين» ذكرى الأخوين نضال وخلدون الحسنية من شهداء «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية». غاب الأخوان وبقيت ذكراهما حاضرة من خلال نصب دشن في العام ١٩٨٨، وعلى النصب عبارة محفوظة: «شهداؤنا هم طليعة انتصاراتنا الكبرى». وفي كفرملكي نصب للحاج صلاح غندور بطل عملية نفذت في بنت جبيل ضد مركز ال١٧ الاسرائيلي. وفي الزهراني نصب لشهيد المقاومة بلال فحص دشن في العام ١٩٨٧. وفي العباسية رفعت الستارة في العام ٢٠٠٧ عن نصب لـ«رجال الله» (أبطال التصدي الباسل للعدوان الصهيوني على لبنان في تموز٢٠٠٦). ونصب في عكار لعلي غازي طالب بطل عملية أرنون الاستشهادية. وللمفارقة فان للعملاء أنصاب كذلك، ففي مدافن مرجعيون يرتفع نصب تذكاري أمام ضريح الرائد سعد جرجس حداد.

على أنقاض المجازر ارتفعت الأنصاب والشواهد مستعيدة صفحات سوداء من سجل الحرب اللبنانية. ينتقي وائل ساحة الشهداء في الدامور التي دشنت العام الفائت من أجل أن لا ينسى كل من لا زال يرغب بالحرب. يرفق صورة الساحة بخبر نشرته صحيفة النهار في ٢١ كانون الثاني من العام ١٩٧٦، وفي الخبر صورة بشعة للحروب الأهلية: «تدهور الموقف سريعاً في جبهة الدامور –السعديات– الجية. أكدت التقارير الأمنية أن بلدة الجية سقطت في أيدي المسلحين في حين ظلت الدامور تقاوم حتى المساء وقد شبت الحرائق في عدد من منازلها. أحرق ٢٠ منزلاً ولا رقم رسمي عن الضحايا. تعرضت المنازل لقصف القذائف الحارقة وقذائف ال١٥٥ ملم. مصادر رسمية قالت أنها التقطت على أجهزة اللاسلكي تعليمات الى المقاتلين في البلدة بالدفاع عنها حتى الموت. وبمضي السنوات تعاقبت المجازر وأقيمت الأنصاب من صبرا وشاتيلا الى قانا الأولى والثانية لتطال قوات حفظ السلام والحزبيون ومناطق عدة من لبنان. ومن سلم من العدوان وقع فريسة للقنابل العنقودية ومخلفات الحرب، ولأولئك رفع نصب لهم في صور.

ثلاثة أنصاب وحديقة وتمثال هي حصة الصحافة. النصب الأول في بلدة الدامور تخليداً لذكرى صحافييها. أما النصب الثاني، فبالكاد عثرت عليه عدسة المصور، وهو للمصورة ليال نجيب التي استشهدت بتاريخ ٢٢ تموز ٢٠٠٦، خلال العدوان الاسرائيلي على لبنان. وفي العام نفسه ارتفع في المنصورية نصب للنائب الشهيد جبران تويني. أما الحديقة والتمثال فبعيدان الى قلب بيروت الصحافي الشهيد سمير قصير الذي أحب المدينة حتى الشهادة. وفي الوسط ما زال تمثال الشهداء يشهد منذ الستينات على محاولات «خردقة»سيرة مدينة. وليس بعيداً عنه، نصب قيد الانشاء بمبادرة من جمعية ذاكرة الغد. يراهن النصب الذي يحمل عنوان «تذكروا»على انعاش ذاكرة اللبناني من أجل أن لا ينجر ثانية الى حرب أهلية تقضي على ما تبقى من بلده.

نصب الجندي المجهول غني عن التعريف. يرتفع في المتحف منذ العام ١٩٤٩ ليشهد على خطوط تماس الحرب. ويوازيه شهرة نصب «أمل السلام» الذي نال حصة وافرة من الأضواء منذ تدشينه في العام ٢٠٠٥. ارتفع النصب في البرزة على مدخل وزارة الدفاع «محنطاً» آلات الحرب ومدافعها. وبذلك يكون رفيقا وشاهدا الى جانب نصب «الخالدون» الذي يستذكر شهداء الجيش اللبناني، دشن في العام ١٩٩٨. وفي قاعدة رياق الجوية نصب لشهداء سلاح الجو اللبناني. وللجيش اللبناني حصة في جبيل حيث تحمل احدى الساحات اسمه، ونصب في عكار لشهداء الجيش الذين تصدوا للعدوان الاسرائيلي وغيره من الأنصاب الموزعة في الجهات الأربع لضباط وجنود أدوا واجبهم للوطن.

الحرب في أنصابها بشعة للغاية بدلالة الصورة التي تخلّف حزناً وغضباً ورعباً من كل ما حصل، وكان يفترض أن لا يحصل أبداً في بلد موسوم بطيبة ناسه وتنوعه وحبه للحياة. واذا كان ليس بالامكان الوقوف في وجه الموت حين يندّه، فان أقل الايمان يكون بمداراته من أجل أن لا يخطف بالجملة، بجن جنونه مثلما حصل في ١٤ نيسان من العام ١٩٧٥: «حادثة عين الرمانة: ٣٠ قتيلا وعدد من الجرحى». وكانت البداية...